

”فتح“: المؤتمر السابع وتداعياته

معين الطاهر*

”فتح“: البدايات والمنطلقات والمعنى

مقدمة

تسعى هذه المقالة لقراءة بدايات حركة ”فتح“ في محاولة للإجابة عن أسئلة ما زالت عالقة ولم تجد إجاباتها اليقينية بعد، والعودة إلى منطلقات الحركة كما رسمها رؤاها الأوائل وعبر مبادئها وأهدافها وشعاراتها الأصلية، في محاولة للوصول إلى المعنى المتضمن فيها عبر مسيرتها الطويلة، وقبل أن يطوي التجاهل والنسيان كثيراً منها.

البدايات

أكثر من نصف قرن مضى على إطلاق ”فتح“ رصاصاتها الأولى التي فجرت الثورة الفلسطينية المعاصرة، والرواية لا تزال متباينة عن بداياتها، وأصل فكرتها وتاريخ تشكلها الفعلي، ومن هم مؤسسوها الأوائل، الأمر الذي يجعلنا أقرب إلى الجزم بعدم وجود رواية واحدة موحدة لهذه الأسئلة المتعددة، أو تأريخ موثق لهذه المرحلة المبكرة؛ فما هو متوافر لدينا لا يتعدى شهادات شفوية متناثرة، وبعض النصوص القليلة المكتوبة،¹ لعل أهمها ما دونه الشهيد خليل الوزير في كراسه ”البدايات“ الذي حاول فيه أن يوضح بعضاً من بدايات الحركة، علماً بأنه اضطر بعد طباعة هذا الكراس إلى إتلافه ومنعه من التداول، تجنباً لإثارة حفيظة قادة آخرين يعتقدون أنه تجاهلهم أو قلص من دورهم في بدايات تشكيل ”فتح“.

ولعل السبب في هذا النقص الفادح يعود إلى أسباب متعددة، منها أن القادة المؤسسين إما استشهدوا، في معظمهم، في مراحل مبكرة من مسيرة الثورة الفلسطينية، وإما لم يدونوا مذكراتهم ويومياتهم عن تلك المرحلة المهمة، ومن دونها منهم - على قلتهم - فإن عائلته لم تأذن بنشرها بعد، وذلك لأسباب شتى، منها أن طبيعة العمل الثوري تفترض أن تتقدم قيادات وتراجع أخرى عبر المسيرة الطويلة، ولهذا فإن الاهتمام انصب على حاضر الثورة أكثر من ماضيها، وهو ما عبّرت عنه ”فتح“ في أحد شعاراتها من أن ”الثورة لمن صدق وليس لمن سبق.“

* كاتب فلسطيني وقائد كتيبة الجرمق سابقاً التابعة لقوات العاصفة.

على أن السبب الأهم ربما يعود إلى التشابك الكبير بين فكرة تشكيل حركة "فتح" والإرهابيات المتعددة التي مرت بالشعب الفلسطيني، وجعلت من الصعب الجزم أي منها شكّل بداية التفكير في تأسيس الحركة، كما أن واقع الشتات الجغرافي ترتّب عليه تشكّل عدة بوّار وتجمعات ثورية تعددت بتعدد مناطق الشتات، وإن كانت حملت أفكاراً متشابهة تدور حول فكرة التحرر الوطني الفلسطيني، ومن هنا يمكن لأي من هذه البوّار أو التجمعات والأشخاص الذين كانوا فيها أن يدعوا ريادتهم لفكرة تشكيل الحركة.

الإرهابيات الأولى

تعدد الروايات بشأن الإرهابيات التي جمعت أغلبية مؤسسي "فتح"، وعلى الرغم من الإشارات الواضحة إلى التزام الجزء الغالب منهم بجماعة "الإخوان المسلمين" في تلك المرحلة، فإن الملاحظ أن معظمهم ترك "الإخوان" في مرحلة مبكرة لم تتجاوز منتصف خمسينيات القرن الماضي، وكان السبب الرئيسي لانضمامهم إلى "الإخوان" هو دور الجماعة المتميز في حرب ١٩٤٨، في حين أن العامل الأساسي لانفصالهم الفردي عن "الإخوان" كان بسبب القيود التي فرضتها الجماعة على أي محاولة للتدريب أو استخدام السلاح في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي بعد النكبة.

من أبرز الذين كانوا ضمن جماعة "الإخوان المسلمين" في ذلك الوقت: خليل الوزير؛ عبد الفتاح حمود^٢؛ فتحي البلعاوي؛ سعيد المسحال؛ ياسين الشريف؛ رفيق النتشة؛ صلاح خلف الذي تأخر في الخروج من "الإخوان" حتى نهاية الخمسينيات. وكان ياسر عرفات قريباً من "الإخوان" لكنه لم يكن ملتزماً تنظيمياً، أمّا فاروق القدومي ومحمد أبو ميزر فكانا بعثيين، بينما كان خالد الحسن من حزب التحرير. وبصورة عامة يمكن القول إنه مع أن أغلبية الرعيل الأول لحركة "فتح" خرجت من خلفية إسلامية، إلا إنها تحررت منها وانفكت عنها في مراحل مبكرة. ولعل المذكرة التي قدمها خليل الوزير إلى قيادة جماعة "الإخوان المسلمين" في سنة ١٩٥٧ شكلت المحاولة الأخيرة من مؤسسي "فتح" للعمل قريباً من "الإخوان"، إذ طلب منهم فيها المبادرة إلى تأسيس تنظيم خاص لا يبدو إسلامياً في ظاهره، ويرفع شعار الكفاح المسلح لتحرير فلسطين ويعمل على تفجيرها، لكن عدم استجابة قيادة "الإخوان" لهذا الطرح تسبب باستقطاب كوادر كثيرة من عناصر "الإخوان" السابقين إلى التنظيم الجديد^٣، ولا سيما أن لدى بعض هذه العناصر تجارب سابقة مريرة عن إجهاض جماعة "الإخوان" محاولاتهم المتكررة خلق بوّار ثورية في قطاع غزة، في بداية الخمسينيات ومنصفها.

رابطة طلاب فلسطين

شكلت رابطة طلاب فلسطين التي تأسست في سنة ١٩٤٩ أول تجمّع فلسطيني في القاهرة اضطلع بدور تمثيل القضية الفلسطينية والدفاع عنها. وتميزت الرابطة في أعوامها الأولى، وقبل أن تتحول إلى الاتحاد العام لطلاب فلسطين بسيطرة "الإخوان المسلمين" عليها بقيادة فتحي البلعاوي الذي كان سكرتير الرابطة في هيئتها الإدارية الأربع الأولى، وقد أبعاد لاحقاً إلى غزة، غير أن اللافت في الأمر هو حرص "الإخوان المسلمين" على أن تتمثل القوى السياسية الأخرى فيها مثل البعثيين والشيعيين. وكان سلمان أبو ستّة الرئيس الأول للرابطة، وتلاه الدكتور موسى أبو غوش، ثم انتخب عبد الفتاح عيسى حمود في الدورة الثالثة بعد أن ترأس قائمة منافسة لقائمة شكلها ياسر عرفات الذي أصبح

رئيساً للرابطة بعد اتفائه مع "الإخوان" في دورتها الرابعة، وبعد أن كان عضواً في الدورة الثانية، ولم يحالف الحظ قائمته الخاصة في الدورة الثالثة.

إن إلقاء نظرة على نشاط الرابطة وأعضائها في تلك الفترة تبين لنا مساهمتها في بدايات تكوين حركة "فتح"، ففيها اجتمع ياسر عرفات وصلاح خلف وعبد الفتاح حمود وكمال عدوان وسعيد المسحال وفتحي البلعاوي وزهير العلمي وفاروق القدومي، وعشرات آخرون ما لبثوا أن التقوا لاحقاً لتشكيل الحركة.

بل يذهب البعض إلى القول إن بياناً طُبع في سنة ١٩٥٤، وصاغه كمال عدوان وعبد الفتاح حمود وسعيد المسحال، ووُزِعَ على الطلبة الفلسطينيين في القاهرة، تحدث عن ضرورة توحيد الجهد الفلسطيني لمواجهة التحديات، وبذلك شكّل "الإرهاص الأول لقيام حركة فلسطينية مقاومة سُميت فيما بعد حركة تحرير فلسطين 'فتح'".^٥

قطاع غزة

شكلت التجارب الأولى في قطاع غزة ورفاق الدراسة في المرحلة الثانوية الذين التقوا لاحقاً في الجامعات المصرية، إرهابات مهمة في بدايات حركة "فتح". إذ شهد قطاع غزة في بداية الخمسينيات ومنتصفها محاولات متعددة لتشكيل مجموعات تنظيمية أو خلايا مسلحة جرى تشكيل البعض منها بمعرفة المسؤولين المصريين للردّ على الاعتداءات الصهيونية المتكررة على القطاع بقيادة الضابط المصري مصطفى حافظ الذي عُرفت هذه المجموعات باسمه، بينما شكّل البعض الآخر بمبادرات من خليل الوزير وحمد العايدي وعبد الله صيام وآخرين، وكانت هذه أولى المحاولات لتشكيل خلايا مسلحة ومجموعات طليعية، في مواجهة محاولات التوطين، وإدارة الحاكم العسكري للقطاع، والعمل خلف خطوط الهدنة.^٦

بدايات متعددة في دول الشتات الفلسطيني

مع حلول منتصف الخمسينيات كان التفكير في تأسيس حركة "فتح" قد بدأ ينتقل إلى دائرة الفعل، فظهر كثير من البؤر التي تحمل الأفكار ذاتها، وتلتقي حول أشكال وتجمعات وروابط تنظيمية متعددة في كل من الكويت وقطر والسعودية والأردن ومصر وأوروبا.

عُقد اجتماع تأسيسي في الكويت في سنة ١٩٥٧، وضم ياسر عرفات وخليل الوزير وعادل عبد الكريم ويوسف عميرة وتوفيق شديد، وفي الاجتماع الثاني تخلّف أحدهم عن الحضور، وقد انضم لاحقاً إلى خلية الكويت صلاح خلف، وسليم الزعنون، وخالد وعلي الحسن، وعبد الله الدنان. ولم يحمل هذا التنظيم أي اسم لمدة تزيد على ١٨ شهراً، ويعتبر البعض، بمن فيهم خليل الوزير، أن هذه كانت الخلية الأولى في حركة "فتح".

لكن بموازاة ذلك كان ثمة خلايا أخرى تتشكل: ففي قطر التقى سعيد المسحال وكمال عدوان، ورفيق النتشة، وفتحي البلعاوي، وياسين الشريف، وأبو يوسف النجار، وعبد الفتاح حمود؛ وفي السعودية محمد الأعرج وسليمان أبو كرش، ولاحقاً ماجد أبو شرار، والحاج مطلق القدوة؛ وفي الأردن الشيخ أبو سردانة وأبو ماهر غنيم؛ وفي سورية كانت البدايات من خلال تجمعات مثل "شباب الأقصى" و"عرب فلسطين"، والتي ضمت خالد وهاني الحسن، ومحمود عباس، وعادل عبد الكريم،

ومحمود الخالدي، وعبد الله الدنان. ويُلاحظ أن انتقال أفراد هذه المجموعات من بلد إلى آخر ساهم في انتشار هذا الاتجاه، من القاهرة وغزة ودمشق إلى دول الخليج وإلى أوروبا، ومن دولة خليجية إلى أخرى، كما هي حال خليل الوزير الذي انتقل من السعودية إلى الكويت، وكمال عدوان الذي انتقل من السعودية إلى قطر وهكذا.

أول بيانات حركة "فتح" كان في سنة ١٩٥٩، وفي حينه أشهر الاسم، وصدر بيان "حركتنا"، وبيان "هيكل البناء الثوري"، ولا يوجد ما يؤكد من الذي قام بكتابتها، وضمن أي من هذه البؤر، لكن المسحال يزعم أنه كتب البيان الأول في قطر، وسلمه إلى عبد الفتاح حمود الذي نقله إلى ياسر عرفات وخليل الوزير في خلية الكويت، وصدر من هناك بعد إجراء بعض التعديلات عليه. أما "هيكل البناء الثوري" فإن كاتب هذه المقالة عثر على مخطوط بخط يد الشهيد كمال عدوان يحمل العنوان نفسه، كما عثر ضمن أوراق الشهيد على نسخة مطبوعة من هذا المخطوط، ومدققة بخط كمال عدوان، الأمر الذي يحملنا على الاعتقاد أنه هو من كتب المسودة الأولى لهذا الكراس.

يروى أبو جهاد أن مجموعات قطر والسعودية طلبت الانضمام إلى قيادة الحركة التي شكّلت في الكويت، بينما يقول المسحال إن عضوية اللجنة المركزية لم تكن عضوية فردية، وإنما عضوية أقاليم، فكان يُرسل من الكويت دعوة إلى قطر والسعودية والأقاليم الأخرى لحضور اجتماع لقيادة الحركة، فيرسل كل إقليم من أعضائه من يكون قادراً على السفر كي يمثل الإقليم. وإذا كان مثل هذا الكلام يحمل تشكيكاً في عضوية بعض الأفراد، إلا أنه يحمل في الوقت ذاته تأكيداً على ريادة خلية الكويت، وأنها شكّلت الأساس في قيادة الحركة التي طلبت المجموعات الأخرى الانضمام إليها.

"نداء الحياة.. فلسطيننا"

في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٩ صدر في بيروت العدد الأول من مجلة "نداء الحياة.. فلسطيننا" التي أشرف عليها الحاج توفيق الحوري، وقد استمرت في الصدور حتى سنة ١٩٦٤، وصدر منها ٤٠ عدداً. وأدت هذه المجلة والمقالات والأفكار التي تضمنتها، والتي كتب خليل الوزير الجزء الأكبر منها، دوراً بارزاً في توطيد العلاقة بين مختلف المجموعات الفلسطينية، فمن خلالها كان الاتصال بعشرات المجموعات المتفرقة في دول الشتات. وركزت مقالات المجلة على شئ حرب لا هوادة فيها على إسرائيل، ورفض أي صفقات سياسية معها، ومقاومة محاولات الهيمنة والاحتواء، وتوظيف جميع موارد الشعب الفلسطيني في خدمة الكفاح المسلح.

مكتب الجزائر

توطدت علاقة ياسر عرفات وخليل الوزير بقيادة الثورة الجزائرية خلال نضالهم ضد الاستعمار الفرنسي، وما إن استقلت الجزائر حتى اتفق على فتح مكتب فلسطين في الجزائر، وأوفد خليل الوزير ليتولى قيادته في سنة ١٩٦٣. وقد أدى هذا المكتب دوراً مهماً في مسيرة حركة "فتح"، إذ تمكنت عن طريقه من استقطاب مئات المدرسين الفلسطينيين، وفتحت معسكرات التدريب، كما شكّل حلقة وصل مع حركات التحرر الوطني في العالم من خلال ممثلاتها في الجزائر، ومنه رُتبت أول زيارة للصين الشعبية في ١٥/٣/١٩٦٤ شارك فيها ياسر عرفات وخليل الوزير. وقام المكتب أيضاً بدور مهم في توحيد المجموعات الفلسطينية المتعددة التي تتبنى الأهداف ذاتها.

الانطلاقة ١٩٦٥/١/١

لم يخلُ قرار البدء بالكفاح المسلح من خلافات وتباينات بين الأعضاء المؤسسين في الخلايا الأولى، قسمتهم إلى مجانين وعقلاء، وتكرر هذا الخلاف عند قرار بدء الانطلاقة الثانية بعد هزيمة حزيران/يونيو ١٩٦٧ واحتلال الضفة الغربية وقطاع غزة، وأدى في الحالتين إلى خروج البعض من صفوف الحركة، جزاء اعتقادهم أن الإعداد لم يكتمل بعد لتفجير ثورة مسلحة.

في النصف الثاني من سنة ١٩٦٤ قدّم ياسر عرفات تقريراً جاء فيه أن المجموعات المسلحة التي نُظمت في سورية ولبنان والأردن أصبحت جاهزة لبدء عملياتها الفدائية، وذلك في إثر جولة قام بها في تلك البلاد. وأقرّ معظم الأعضاء بقرار الانطلاقة بدءاً من الخلية الرئيسية في الكويت، كما وافق إقليمي السعودية وقطر على ذلك في اجتماع عُقد على الحدود القطرية - السعودية في آب/أغسطس ١٩٦٤.

الأمر اللافت بعد قرار الانطلاقة، هو مجموع الإجراءات التي اتُّخذت على الفور لتسهيل هذا القرار وتسريعه، والتي تنمّ عن روح ثورية عالية سادت في صفوف هذه المجموعات الأولى. وأولها قرار يقضي بأن يسلم جميع الأعضاء كل ما يملكونه من مال إلى صندوق مركزي عبر "تصفير" جميع الأعضاء حساباتهم في البنوك، وكان أكبر مبلغ حصل عليه الصندوق من ياسر عرفات، وقد وصل مجموع الرصيد المعدّ للانطلاقة من حسابات الأعضاء وبعض التبرعات من أصدقاء ومناصرين مليون وثمانمئة ألف ريال. أمّا القرار الثاني فكان الاحتفاظ بنصف دينار من كل دينار يُجمع، وتخصيصه لأسر الشهداء عبر تشكيل مؤسسة أسر الشهداء ورعاية الأسرى، والتي ما زالت تعمل حتى اليوم.

وظهرت ضرورة لتفرغ بعض القيادات لمتابعة الأعمال الثورية، وكان أولهم خليل الوزير، وتبعه أبو يوسف النجار وعبد الفتاح حمود وياسر عرفات، ثم صلاح خلف ومحمد الأعرج ومحمد أبو ميّزر وكمال عدوان. واعتمد قرار التفريغ بالأساس وفي بداياته الأولى على توفر المال اللازم وقلة التزامات المتفرغ العائليّة.

اقتصر البيانان الأول والثاني لـ "قوات العاصفة"، وهو الاسم الذي اعتمد للجناح العسكري لحركة "فتح"، على إعلان عمليات عسكرية، أمّا البيان الثالث الذي صدر في ١٩٦٥/١/٢٨ فأشار إلى أن الانطلاقة ليست مجرد رصاصة أطلقت، بل انعطافة كبرى في تاريخ الشعب الفلسطيني وفي تاريخ المنطقة العربية أيضاً، وأنها لحظة البدء للحرب التحريرية الطويلة المدى، مؤكداً المزوجة بين العمل العسكري والتنظيمي، وأن تحرير فلسطين لا يرتبط بالشعب الفلسطيني فحسب، بل بالأمة العربية وجوداً وحضارة أيضاً.

المنطلقات والمعنى

حملت الوثيقة الأولى لحركة "فتح" عنوان "حركتنا فُتح.. الثورة طريقنا للحرية.. وثورة حتى النصر"، وعُرّفت الحركة بأنها حركة وطنية ثورية منبثقة من إرادة الشعب الفلسطيني، مؤكدة ابتعادها عن الإقليمية، وأن فلسطين جزء لا يتجزأ من الوطن العربي الكبير، محددة مهمتها بسعيها لتهيئة الشعب الفلسطيني كي يقود ثورة تحرير فلسطين.

تؤكد حركة "فتح" أنها لا تحمل أيديولوجيا حزبية، ولا تطالب المنضمين إليها بالعدول عن

أفكارهم وتوجهاتهم، وإنما بتجميد عملهم وانتمائهم الحزبي، داعية إلى توظيف جميع الطاقات، وحشد الجهد كله من أجل هدف واحد هو تحرير فلسطين، ومعتبرة أن الأرض بعد تحريرها ستكون ملكاً للسواعد الثورية التي تحررها، محاولة بذلك الابتعاد عن أي نقاش له طابع أيديولوجي. غير أن ذلك سمح بنشوء تيارات داخل الحركة التي كانت قيادتها متسامحة مع تلك التيارات إلى أبعد حد بحيث استعار ياسر عرفات في وصفها مقولة لماو تسي تونغ: "دع ألف زهرة تتفتح"، لكنه كان يضيف محذراً بأن ذلك يجب أن يجري داخل الحديقة، أي بمعزل عن أي ارتباط خارجي.

واحتل موضوع الكيان الفلسطيني محوراً مركزياً في فكر حركة "فتح" منذ بداياتها، إلا إن هذا الكيان المنشود كان يُنظر إليه باعتباره ضرورة لحشد جهد الشعب وتعبئته وتنظيمه واعتباره منطلقاً للتحرير، ففي وثيقة البناء الثوري تعلن "فتح" عزمها على إعلان "قيام الكيان العربي الفلسطيني بقيادة ثورية لهذا الكيان"، وتفسر المطالبة بهذا الكيان (هذا قبل حزيران/يونيو ١٩٦٧) بخلق منطلق للثورة لتحرير الوطن. ويلاحظ أن الحديث عن الكيان خُفّت كثيراً في أدبيات "فتح" بعد حرب حزيران/يونيو واحتلال كامل الأرض الفلسطينية، علاوة على سيناء والجولان، واستُبدل بالحديث عن تحرير كامل التراب الفلسطيني، إلى أن عاد إلى الظهور بقوة بعد حرب تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣ وشيوع وهم التسوية.

ورفعت "فتح" أيضاً شعار استقلال القرار الفلسطيني، وهو توجّه لا ينم عن "قطرية ضيقة أو إقليمية منفصلة"، بقدر ما كان يهدف إلى إبعاد القضية الفلسطينية عن المحاور والصراعات والتدخلات العربية، ومنع استغلالها في الخلافات العربية. ولذا، فإننا نجد رابطاً قوياً بين هذا الشعار وشعار عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول العربية، والبعد عن الاستقطابات العربية والدولية. والمؤكد أن شعار استقلال القرار الفلسطيني لم يكن الغرض منه قط استفراد القيادة الفلسطينية بتقرير مسار القضية الفلسطينية التي اعتبروها قضية فلسطينية - عربية - إنسانية، أو تبرير التنازلات اللاحقة بحجة استقلال القرار الفلسطيني.

كانت حركة "فتح" حركة التحرر الوطني للشعب الفلسطيني، وتمكنت من تنظيم صفوفه، وحشد طاقاته عبر تبني الكفاح المسلح وحرب التحرير الشعبية الطويلة الأمد التي تهدف إلى تحرير كل فلسطين، وإقامة الدولة الديمقراطية التي تتعايش فيها الأديان كلها، مشكلة بذلك نقيضاً عملياً للصهيونية وللاستعمار الصهيوني الكولونيالي في فلسطين، ومعتبرة نفسها طليعة للثورة العربية بطرحها مركزية القضية الفلسطينية في الوضع العربي وتناقضاته وصراعه مع الاستعمار والتحالف والسيطرة الأجنبية.

خاتمة

هذه هي حركة "فتح" مثلما أرادها مؤسسوها وقادتها الأول أن تكون، والتي سار على دربها عشرات الآلاف من الشهداء والأسرى والجرحى. وهي إن أصابت أو أخطأت، إلا إنها حافظت على اسم فلسطين ورايتها عالية خفاقة، وصنعت أطول ثورة في القرن العشرين، ولعل أسمى ما بقي منها هو فكرتها. ■

المصادر

- ١ أبرزها: "خليل الوزير: حركة فتح البدايات"، "مجلة الدراسات الفلسطينية"، العدد ١٠٤ (خريف ٢٠١٥)، ص ٥١ - ١٣٠: سعيد خليل المسحال، "بين الثورة والنفط وأعمدة الشر السبعة" (عمان: مؤسسة الناشر، ٢٠١٣)؛ "أوراق كمال عدوان"، مخطوطات غير منشورة محفوظة لدى المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات - الدوحة.
- ٢ من مؤسسي حركة "فتح" وعضو لجنتها المركزية، استشهد في ٢٨/٢/١٩٦٨.
- ٣ يزيد صايغ، "الكفاح المسلح والبحث عن الدولة: الحركة الوطنية الفلسطينية، ١٩٤٩ - ١٩٩٣"، ترجمة باسم سرحان (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٢).
- ٤ معين الطاهر، "من أوراق فتحي البلعاوي"، مجلة "أسطور للدراسات التاريخية" (كانون الثاني/يناير ٢٠١٧).
- ٥ المسحال، مصدر سبق ذكره.
- ٦ الوزير، مصدر سبق ذكره.

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

اليد ترى والقلب يرسم

سيرة تمام الأكل وإسماعيل شموط

تمام الأكل

تحرير غانم بيبي تقديم الياس خوري

٢٨٤ صفحة ١٢ دولاراً